رجل فى القاهرة

ألف هذا الكتاب الأستاذ أحمد رشدى صالح

تاريخ مداف فى أسلوب قصصى لايعتمد على الخيال ولكن يرتكز على وقائع مختارة وراءها أبعاد انسانية.

السنة : ٧٨٤ هـ.

رست السفينة فى الميناء... بعد أن طوت النصف الآخير من شعبان وشهر رمضان جميعا..

وبدت صغيرة ضئيلة، بجوار المراكب التجارية، والسفن الحربية التى كانت تغطى سطح الماء.

وانصرف ركاب السفينة يستعدون للنزول، وكانوا خليطا عجيبا: يتفرقون فى شتى الاتجاهات، ويجتمعون مثنى وثلاثا، وينتظمون فى حلقات، ويتناثرون على ظهرها، وتتوالى ملابسهم بيضاء، وصفراء، وبنية، وزرقاء.

وعندما صعد إليهم أمناء الميناء، وأخذوا يكتبون فى دفاترهم أسماء الركاب وبلادهم، وأسباب سفرهم، ويفحصون الأمتعة والبضائع ويقدرون عليها الضرائب، تبين أن هؤلاء المسافرين يؤلفون مجموعة فريدة فى نوعها- فمنهم تجار قاهريون، وحجاج تونسيون وفقهاء من الأندلس، وآخرون بلا وظيفة معلومة، وبينهم تاجر رقيق وعشرون أو ثلاثون عبدا وجارية، وبضائع مجلوبه من أحراش أفريقيا وأخرى آتية من أسبانيا ومينورقة وكريت.

وفى ناحية نائية من ظهر السفينة، وقف رجل مهيب، قوى البنيان، ذاهلا عن اللغط الذى تعالى بعد وصول عمال الميناء.

وكان يرسل نظراته إلى السماء حينا، ويمدها إلى البحر والأفق أحيانا، يراقب الموج وهو يلتقى، ويفترق، ويتداح ويختفى.. ويرى الأمواج العالية وهى تتكسر على اكتاف الأمواج الصغيرة ثم تذهب جميعا فى خضم الماء الفسيح المختلف الألوان.

وتكلم الرجل المهيب قائلا:

- اذن فهذه هى الاسكندرية..

نعم ياأبا عبدالرحمن.. إنها الاسكندرية.. إنها مصر.. نزلت سهلا وحللت أهلا..

إنه عبدالرحمن بن خلدون.

وقار ظاهر وسمت كبار العلماء.. لم يكد ينطق اسمه حتى ساد الصمت برهة.. ولم يكن عمال الميناء حمقى فقد هدأت لهجتهم وهم يسألون فى أسلوب ابن البلد (الذوق)... إنه ليس أى راكب

- ومن أين؟

- من تونس ووجهتى الحجاز... وليس لى متاع غير هذا.. وأشار الى خادم زنجى، يقف على بعد خطوات، ويضع بجواره صندوقا.

وقال ابن خلدون مبتسما:

- ولن تجدوا فى الصندوق شيئا كثيرا.. انما هى كتب وأوراق وثياب وقليل من المال.

ولكن ابن خلدون لم يتجه إلى الحجاز بل تعلق بمصر وظل فيها إلى آخر العمر..

ومن الاسكندرية سافر إلى القاهرة. ولم يكد يمضى عليه أسبوع فى القاهرة حتى اشتاق «الكاتب» فيه إلى القلم.. وشرع يمسك بالقلم وكتب:

وصلت تاج الخليقة، ومحشر الأمم، وقاهرة الدنيا.

ثم عاد يكتب من جديد.. فهذا السطر لا يصور البهر كله ولا يروى الشوق كتب (كنت قد أقمت بالاسكندرية، شهرا، لتهيئة أسباب الحج، وانتقلت إلى القاهرة أول ذى القعدة فرأيت حاضرة الدنيا وبستان العالم ومحشر الأمم ومدرج الذر من البشر وديوان الاسلام وكرسى الملك، تلوح القصور والدواوين فى جوه، وتزهر الخوانق والمدارس بآفاقه، وتضىء الكواكب من علمائه قد مثل بشاطىء بحر النيل نهر الجنة ويدفع مياه السماء، ومررت فى سلك المدينة، يغص بزحام المارة وأسواقها تزحم بالنعم).

وكأن الاستاذ أحمد رشدى صالح مؤلف الكتاب كان معه فى جولاته بالقاهرة فهو يسجل عنه وكأنه يمس دبيب أفكاره.

(إن الورق لا يتسع أمامه لأخبار هذه المدينة الشاسعة التى أصبح عاشقا لها، وهو يدور مبهور العينين من الحسينية إلى المشهد النفيسى.. ويقلب بين يديه فى المتاجر قباء الفرو ويرى جهاز عروس: دكة مصنوعة من فضة ودكة مكفته (التكفيت الزخرفة بمعدنين يداخل الصانع أحدهما فى الآخر) وثالثة من نحاس أبيض ورابعة من خشب مدهون، وخامسة من صينى، وسادسة من

بلور وسابعة من ورق مقوى، وسبع طاسات يعدها مبتسما وسبعة أطباق يخيل إليه أنه لو جلس فى أكبرها، لزاد عليه اتساعا.

ويسأل ابن خلدون عن العروس من تكون؟

فيعلم أنها ابنة وزير السلطان قلاوون.

ويمر فى البساتين، ويعجب لأنواع الورد، المختلفة من الأحمر إلى الأزرق إلى الأصفر والأبيض.. ويقطف من النرجس، ويتذكر أبياتا من الشعر عن البنفسج والياسمين!

- تلك اذن هى جنة الله! وغاية ثروات الانسان!

ولكنه لم يجد فى هذه الجنة بعد، تفسيرا للعبارة التى أطلقها العامة عن السلطان قلاوون وشريكه «بركة»، اللذين قبضا على ناصية الحكم، فقرر العامة أن: (برقوق وبركة نصبا على الدنيا شبكه).

لا يزال ابن خلدون يتجول فى القاهرة واستوقفه قماش يتغير لونه حسب وضعه من النور فسأل البائع.. وجاءه الجواب بمعلومة جديدة عليه زادته بهرا وعجبا.. قال البائع:

- إن أهل دمياط هم أمهر سكان الأرض فى صناعة الأنسجة والمفروشات.. يأخذون بين أصابعهم خيوط القطن والكتان والحرير، ويديرون الأنوال الخشبية الثقيلة، يوما ويومين، ثم يعطونك هذا الثوب «ابو قلمون» الذى تعرضه للشمس فيبدو كأنه مجموعة من أزهار برية حمراء وصفراء ثم تقربه من الظل، فيبدو بلون القرفة، وقد تضعه فى ضوء الشموع، فيتضح فيه اللون الأصفر اللامع.

وكان دكان القماش، حسن الترتيب، واسع الأرجاء.. ودعاه التاجر إلى الداخل.

ومن صندوق مصنوع من خشب الابنوس، ومطعم بالعاج، أخرج قطعة نسيج من الحرير الأخضر الغامق، فيها شريطان عريضان، كأنهما مشاهد من الغابة، فشجرة عارية الأغصان، ونمر يطارد غزالا، ثم يتكرر الزخرف!

قال التاجر:

- هذه الغرائب ليست للبيع! إنها للرؤية فقط!

- وما فائدتك فى الاحتفاظ بها؟

- قال التاجر مبتسماً.

- كفائدة العالم بما فى عقله من علم!

لقد اشتغلت نساجا وأنا فى الثامنة من عمرى ، وعرفت كم ذا يحب النساج الفن الذى يصنعه وكم ذا يرى أنه جزء من شبابه أو شيخوخته.. وصدقنى ياسيدى! ليس فى العالم، أعز على الإنسان، مما يصنع بيديه.. انه يشعر كأن قطعة النسيج التى ينسج، أو طبق النحاس الذى يصنع ويزخرف، أو مرود الكحل الذى يجعله قطعة حية بعد أن كان كتلة من العاج- إنه يشعر بأن ما يخلقه، إنما هو ابنه أو ابنته!

ورأى ابن خلدون أن فى الدكان ما هو أضخم من هذا النسيج الرائع الثمين- ذلك هو صاحب الدكان- وكان عبدالرحمن يحب أن يتعمق قلوب الناس، ليعرف قيمة الصنائع التى يحترفون.

قال ابن خلدون:

- مدينتكم هذه لا نظير لها فى الدنيا- الذى يقول هذا زار الأندلس ورأى كثيرا من بلاد العالم العربى.

ولكن لمن تبيعون كل هذا؟ وحبكت النكتة المصرية فقال صاحب الدكان:

- نحن نبيعه لمن يدفع الثمن.

- ومن يستطيع أن يجزيكم عن هذه الفرائد الغالية؟

- هذا البلد الطيب ياسيدى يحب الاستمتاع جدا.. ترى الرجل الفقير، يحصل على مائة درهم، فيقتنى على الفور، قطعة من حرير لامرأته، أو يقتنى دكة من نحاس!

نأتى إلى السلطان برقوق الذى كان يتندر عليه المصريون وعلى نائبه بركة كما أشرت منذ قليل

يقول الأستاذ رشدى صالح كان برقوق ذكيا بقدر ما كان قاتلا.. وكان من عادة الملوك أن يطرزوا ثيابهم بالأحجار الكريمة ويطرزون مجالسهم بالعلماء.

ولم يفت السلطان أن جوهرة غالية ظهرت فى القاهرة وأصبحت حديثها....

واجتذب برقوق، العالم الجليل وربط له راتبا.

وكأن القاهرة ليس لها حديث إلا عن ابن خلدون و (المقدمة)

مقدمة ابن خلدون

وتصدر ابن خلدون للتدريس

وأحاط به خمسة من المجاورين هم:

محمد السيوطى - ابراهيم الحموى من حماه بالشام ولكن أهل القاهرة سموه "ابن عرس" ولازمته التسمية لا تريم

والثالث أو الثلاثة الباقون فهم: عبدالله، وعنتره وعمر وكلهم من قرية منية ابن خصيب بمحافظة المنيا أى بلدياتى.. وباعتبارى منياوية يسعدنى الكتابة عنهم:

وكان ابن خلدون يجمع أخبار مصر من خلال حواريه الخمسة لقد قال لهم بعد درسه الأول:

- لو أنى شهدت مصر من قبل أن أضع كتابى لأفدت من المشاهدة فهذا بلد غنى مزدحم يختلف عن المغرب والاندلس. وقد اقنعتنى تجاربى القليلة مع أهله، انهم يستحقون تفكيرا عميقا، ومختلفا عما خطر لى.. وأريد أن أجمع فى ذهنى أخبار هذا البلد.

وتولى ابن خلدون القضاء فى القاهرة. وله فيه وقفات وصولات أحب ابن خلدون القاهرة وأحب أيامه بها وبادلته القاهرة حبا بحب حتى أنه حين اختار جوار الله بعد أن مكث بها أربعة وعشرين عاما (من ٧٨٤ هـ - ٨٠٨ هـ)، أعلن المنشدون من فوق مآذن الأزهر ومن فوق جامع عمرو والمساجد القريبة، أن الشيخ عبدالرحمن بن خلدون قد انتقل الى الرفيق الأعلى.. إن قاضى المالكية قد مات.. إن الوزير الجليل وبحر العلوم ورافع لواء العدل.. عبدالرحمن قد مات..

وسقطت الكلمات إلى شوارع المدينة ودخلت الحوانيت والوكالات وامتدت إلى القصور.. تعلن نهاية عادل ونهاية عالم ونهاية عظيم..

مرة أخرى أقول إن المؤلف الاستاذ رشدى صالح طيب الله ثراه يعايش ابن خلدون فى هذا الكتاب كأنه رآه ثم يصف جنازته كأنه شيعه وودعه. وأحسب هذا كله تحية للحب الذى كان ابن خلدون يكنه للقاهرة الحبيبة.. ورشدى صالح من عشاقها..

مع الخليج الفاصل بين جزيرة الروضة والضفة الشرقية لذلك الخليج، سار موكب جنائزى مهيب، يتقدمه ستة من الفقراء المكفوفين يتلون الشهادتين بأصوات خافتة، وهم يسيرون اثنين اثنين، ووراء الفقراء، مشى طلاب من الأزهر وطلاب من المدارس المختلفة وعمال وتجار وعلماء وأمراء ووزراء.

ومشت القاهرة الوفية مع جثمانه خطوة خطوة..

وفى هذا الحشر والحشد كان صديقه التاجر منصور يمشى خطوتين ويسقط خطوة فترفعه سواعد عبيده وكاتبه..

وعندما عبرت الجنازة الخليج الى القاهرة متجهة إلى الجامع قال حمال واقف تحت البواكى:

- من الأمير؟

- وقيل له إنه ليس أميرا بل هو قاضى المالكية!

وبكى الرجل البسيط وانضم إلى الحشد السائر يكفكف دموعه فللراحل فى عنقه دين عندما أنصفه فى دعوى

وضربت نساء على صدورهن، وهن يرين الصف العريض الطويل، كأنما المسلمون جميعا سائرون إلى الحشر أو إلى الجهاد.

وحين اخترقوا بالجنازة، المدينة المرحه المشرقة خشعت أبصارها وتوقفت عن الحركة.. وتألمت الجميلة الساحرة القاهرة..

وواروه التراب فى مدافن الصوفية

أما المجاورون الخمسة فقد صلوا عليه ودعوا له وكعادة المصريين وكعادة المصريين جميعا ارتفعوا بسرعة على أحزانهم وتصدروا للتدريس تحية له وتخليدا فقد آل كل منهم على نفسه أن يعلم الناس ما كان يزخر به البحر الانسان: ابن خلدون

كأن قومنا فى داخلهم (مينا) ترسو عليها آلامهم وتهدأ وتنصهر القمة وتصير جذوة متوهجة..

قادرة مصر على مواجهة الأحداث.. قادرة على الاستعلاء على الألم مهما جثم وجسم قد يعلو وجهها النبيل غيره ترهقها فترة ولكن داخلها سليم لا يقهر.

إنها مصر التى أحبها ابن خلدون الى حد الانبهار وإنها القاهرة كريمة أنت فى الجرح.. عظيمة أنت فى الفرح.. سلمت جراحك ونور ليلك وصباحك وعشت لنا ولمجيك «مصر» وعاشت بك القاهرة.